العلاقات السياسية بين الصليبيين والبحتريين في عصر الحروب الصليبية

إعـــــداد

د. محمد محمد عبد الحميد فرحات

مدرس تاريخ العصور الوسطى

كلية التربية بالعريش

جامعة قناة السويس

كان على الصليبيين بعدما نجحوا فى تأسيس إماراتهم الأربع فى بلاد الشام -بعد الحملة الصليبية الأولى[1]- أن يتعاملوا مع جيرانهم المسلمين المحيطين بهم؛ إذ لم يكن بوسعهم العيش بمعزل عنهم، كما كان على المسلمين أيضًا أن يتعاملوا مع الوضع الجديد ويقيموا علاقات مع الصليبيين وفقًا لما تمليه عليهم مقتضيات الأمر؛ لذا فقد قامت بين الجانبين علاقات مختلفة اتسمت بالعداء حينًا والسلم حينًا آخر. وقد أقام الصليبيون علاقات مع جيرانهم المسلمين سواء كانوا دولاً أو مدنًا كبيرة أو حتى كيانات صغيرة حيثما وجدوا مصلحتهم. ومن أمثلة تلك الكيانات الصغيرة التى ارتبطت بعلاقات مع الصليبيين، البحتريون[2] الذين لعبوا دورًا هامًا على مسرح الأحداث السياسية فى منطقة الشرق الأدنى الإسلامى إبان فترة الحروب الصليبية وأغفلته المصادر -سواء كانت عربية أو غربية- إغفالاً يكاد يكون تامًا، كما أنه لا يوجد بحث قائم بذاته يتناول بالدراسة والتحليل العلاقات الصليبية البحترية إبان تلك الفترة؛ لذا فقد وقع اختيار الباحث على هذا الموضوع ليكون هدفًا لهذه الدراسة التى جعلت عنوانها "العلاقات السياسية بين الصليبيين والبحتريين إبان عصر الحروب الصليبية".

---

(1) تعتبر الرها هى أول الإمارات الصليبية التى أسسها الصليبيون فى الشرق الإسلامى ١٠٩٧م/٤٩١هـ تليها إمارة أنطاكية فى نفس العام، ثم إمارة بيت المقدس ١٠٩٩م/ ٤٩٢هـ، وأخيرًا طرابلس ١١٠٩م/٥٠٣هـ.

(2) بحتر: بضم الباء وسكون الحاء المهملة وختم التاء المثناة من فوق: بطن من طيء من القحطانية، وهم بنو بحتر بن عتود بن عينين بن سلامان بن ثُعل، والبحتر فى اللغة القصير الجسم الخلق. ولمزيد من التفاصيل عن نسبة البحتريين راجع:

القلقشندى: نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الإبيارى، دار الكتاب المصرى، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٨٠م، ص ١٧٣، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، جـ١، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٣م، ص ٣٢١، ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق عبد السلام هارون، ط ٤، دار المعارف، بدون تاريخ، ص ٤٠١، ٤٧٦، السويدى: سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب، بيروت ١٩٨٦م، ط١، ص ٢٤٠.

والجدير بالذكر أن المصادر العربية والغربية على حدٍ سواء كانت ضنينة للغاية على الباحث بتزويده بمادة تتعلق بهذا الموضوع، فنجد بعض المصادر أغفلت ذكر البحتريين تمامًا سواء كان ذلك تصريحًا أم تلميحًا، والبعض الآخر نجده يشير إليهم مجرد إشارات سريعة مقتضبة، مما جعل مهمة الباحث جد عسيرة، ولعل صمت المصادر هذا يرجع إلى جهلها بالبحتريين أو لصغر كيانهم بالمقارنة بغيرهم من الكيانات الكبيرة المحيطة بهم، أو لأنها استقلت الدور الذى قاموا به فى تلك الحقبة رغم أن البحتريين قاموا بدور هام إبان فترة الحروب الصليبية.

ويعتبر كتاب صالح بن يحيى الموسوم بـ"تاريخ بيروت وأمراء بنى الغرب البحتريين"[٣] من أهم المصادر العربية التى حوت مادة تاريخية عن هذا الكيان على قدر كبير من الأهمية لا نجد معظم مادتها فى سواه من المصادر سواء كانت عربية أو غربية، ولذلك فهو يعتبر المصدر الأساسى الذى استمدت منه تلك المصادر معظم ما كتبته عن البحتريين. ولم يكن قصد صالح بن يحيى عندما وضع كتابه هذا سرد الأحداث التاريخية وكتابة تاريخ عام بقدر ما كان يهدف إلى تسجيل مآثر أسلافه وأمجادهم حتى يقف عليها الخَلَف وتتوارثها الأجيال جيلاً بعد جيل. وقد أوضح ذلك فى مقدمة كتابه، وذكر أنه تصر هذه المذكرات على أهل بيته فقط «لا تخرج عن الخَلَف ولا تعار لغيرهم» على حد قوله[٤].

وبما أن كتاب صالح بن يحيى يعتبر المصدر الرئيسى لهذه الدراسة لاحتوائه على كثير من المادة التاريخية الخاصة بالبحتريين؛ لذا كان علىَّ أن أتعامل معه بحرص وحذر شديدين. فرغم أن الكاتب كان ثقة دقيقًا لا

---

[٣] صالح بن يحيى: كتاب تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بنى الغرب، نشر وتعليق لويس شيخو، بيروت فى المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، ١٨٩٨م.

[٤] صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص٧.

يروى شيئًا إلا شفعه بأسانيده وحججه، إلا أنه يلاحظ مع ذلك ميله أحيانًا إلى أسلافه وإغفاله أيضًا لبعض الأحداث التاريخية التى قد تشوه ذكرهم[٥]، ومع هذا فإن مؤلفه يعد مصدرًا أساسيًا لهذه الدراسة وقد استقى صالح بن يحيى معلومات عن أسلافه من خلال الوثائق الرسمية والمكاتبات المتبادلة بين الأمراء البحتريين من جهة، وبين أمراء دمشق -الذين يتولون الإشراف عليهم- وحكام القاهرة من جهة أخرى[٦]. ومن أمثلة تلك المكاتبات المناشير الخاصة بتولية البحتريين الإمارة على إقطاعاتهم والرسائل التى توضح المهام المكلفين بها وغيرها من الأمور المختلفة التى تتعلق بتصريف شئونهم، وبين ثنايا هذه المكاتبات نجد المادة التى تهمنا والخاصة بالعلاقات بين الأمراء البحتريين والصليبيين مبعثرة هنا وهناك، وهى تلقى الضوء على طبيعة هذه العلاقات وماهيتها. وقد اتسمت تلك العلاقات بروح العداء تارة والوفاق تارة أخرى تبعًا للظروف التى كان يمر بها كلا الجانبين، فنجد الهجمات المتبادلة بين الطرفين حينًا والسلم والمعاهدات حينًا آخر، وذلك وفقًا لما تمليه ظروف كلا الطرفين[٧].

ولتفهم طبيعة تلك العلاقات يجدر بنا العودة قليلاً إلى الوراء للتعرف على البحتريين، من هم؟ وما هى الظروف التى مروا بها منذ

---

(٥) ومن أمثلة ذلك إغفاله الإشارة إلى الهجوم الصليبى على إقليم الغرب ١١١٠م/ ٥٠٤هـ، وكذلك تشييد الصليبيين لقلعة مونت جلاتين فى جبال بيروت ١١٢٥م/٥١٩هـ، ونفيه لوجود خطابات متبادلة بين البحتريين وكل من أمراء أنطاكية وصيدا وعكا. عن ذلك راجع ص ٦، ١٦، ١٧ من هذا البحث.

(٦) راجع نصوص هذه الوثائق والمناشير فى صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٦٤-٢٥٩، وانظر أيضًا

C. Clermont, Deux Chartes des Croisés dans les Archives Arabes, in (R.A.O.), Vol. VI, 1905, (pp. 1-30), p. 1.

(٧) Jean Richard, The Latin Kingdom of Jerusalem, Trans. by Janet Shirley, 2 vols, New York, 1979, Vol I, p. 28; Nikerson, The Seigneury of Beirut in the Twelfth Century and The Brisebarre Family of Beirut -Blanche-Garde, in Byzantion, 1949 (pp. 141-185), p. 149.

نزوحهم إلى بلاد الشام فى القرن السابع الميلادى / الأول الهجرى، وحتى مجئ الصليبيين إلى المنطقة ودخولهم فى علاقات معهم؟

ينتسب البحتريون إلى جدهم الأكبر الأمير بُحتر الملقب بناهض الدولة أبى العشائر بُحتر بن شرف الدولة على بن الحسين، والذى ينتهى نسبه إلى تنوخ[٨]، ومنه إلى المناذرة ملوك الحيرة اللخميين[٩]. كان التنوخيون أجداد البحتريين قبائل نصرانية قبل الإسلام[١٠] وبقوا على دينهم زمنًا بعد الهجرة النبوية الشريفة إلى أن غلب عليهم الدين الإسلامى لاختلاطهم بالمسلمين[١١]، واستوطنت تنوخ بعد الإسلام البرية الواقعة بين حلب ومعرة النعمان[١٢]، وإلى عربها ينتسب الأمراء البحتريون الذين

---

[٨] تنوخ: بفتح الفاء وضم النون ثم خاء معجمة، هى حى من اليمن من القحطانية، والتنوخ المقام، وينسبون إلى الأمير تنوخ بن قحطان بن كلدة بن عندب الذى يرتفع نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام. وإنما سموا تنوخًا لتنوخهم بالشام وقيل بالحيرة. ولمزيد من التفاصيل عن نسبهم راجع: القلقشندى: نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب، ص ١٨٩، ابن حزم: المصدر السابق، ص ٢١٥، ٤٥٣، ٤٦١، الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤، دار المعارف ١٩٧٩م، جـ١، ص ٦١٢، جـ٢، ص ٤٢.

[٩] القلقشندى: صبح الاعشى، جـ١، ص ٣٢١، السويدى: المصدر السابق، ص ٢٤٠.

[١٠] عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، جـ١، مؤسسة الرسالة، ط٥، بيروت ١٩٨٥، ص ٦٩، قيلب حتى: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ٢ ج، دار الثقافة، بيروت ١٩٥٨م، جـ٢، ص ١٧٠.

[١١] على الرغم من أن صالح بن يحيى ذكر فى كثير من المناسبات أن أجداده كانوا من المسلمين السنة، إلا أن هناك من الآراء ما يشير إلى أنهم كانوا من الدروز، وأنهم تظاهروا بالإسلام لاتقاء شر السلطات الإسلامية الخاضعين لنفوذهم من جهة، وكسب ودهم من جهة أخرى. عن ذلك انظر:
H. Lammens, La Syrie, Précis Historique, 2 vols, Beyrouth 1921, Vol II, p. 10.

[١٢] الطبرى: المصدر السابق، جـ٢، ص ٤٢، جـ٤، ص ٥١. انظر أيضًا:
Churchill, Mount Lebanon, London 1853, Vol I, p. 226; Lammens, Op. Cit., Vol II, p. 9.
ومعرة النعمان هى مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة ماؤها من الآبار وعندهم الزيتون الكثير والتين. انظر: ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٥، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت ١٩٥٧، ص ١٥٦.

خضعوا في تلك الفترة المبكرة لإشراف نائب حلب الذى ولى عليهم من قبله مشدًا[١٣] يرعى شئونهم، وعندما تعرض هذا المشد لبعض حريمهم، قام رجل منهم يدعى نبا بقتله وفر مع حريمه إلى منطقة كسروان[١٤]، حيث عمر له قرية هناك سميت برج نبا، ولما طلب نائب حلب القاتل من عشيرته خافوا منه فرحل بعضهم إلى إقليم الجزيرة وأعالى الفرات[١٥]، بينما توجه البعض الآخر إلى موضع نبا حيث استقروا هناك، وذلك عام ٨٢٠م/٢٠٥هـ[١٦]، وفيما بعد استوطنوا المنطقة الجبلية بصيدا وإقليم الغرب ببيروت الذى يشمل المنحدرات الجبلية الواقعة بين بيروت ونهر الدامور[١٧] وظلوا بها حتى مجئ الصليبيين إلى المنطقة.

---

[١٣] المشد: ويقال له أيضًا الشاد، كان يتولى الدواوين وغيرها من الوظائف. فكان هناك شادّ للأسواق والسلاح والمراكب وغير ذلك من الوظائف المفردة. ابن شاهين الظاهرى: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى بنشره بولس راويس، طبع فى مدينة باريس المحروسة بالمطبعة الجمهورية سنة ١٨٩٢م، ص ١١٤.

[١٤] كسروان: مقاطعة بيروت، صالح بن يحيى: المصدر السابق، جـ٢، ص ١٣.

[١٥] نفس المصدر، ص ٦٩، الطبرى: المصدر السابق، جـ٢، ص ٤٢، أنظر أيضًا: محمد كرد على: خطط الشام، جـ١، ط٣، دمشق ١٩٨٣م، ص ٢٢-٢٦، لويس شيخو: بيروت تاريخها وآثارها، بيروت ١٩٢٥م، ص ٦٧. ويقع إقليم الجزيرة بين دجلة والفرات، وتشتمل على ديار مُضر وديار بكر. انظر: ياقوت الحموى: المصدر السابق، جـ٢، ص ١٣٤.

[١٦] الشدياق: أخبار الأعيان فى جبل لبنان، بيروت ١٨٥٩م، جـ١، ص ٢٢٣، فيليب حتى: المرجع السابق، جـ٢، ص ١٧٠.

[١٧] صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٧٢. انظر أيضًا:

Churchill, op. Cit., Vol. I, pp. 237-38; Claude Cahen, La Chronique de Kirtay et les Franc de Syrie, in J.A, Paris 1937, (pp. 240-45), p. 244; Idem, La Syrie de Nord à l'époque des Croisades et La Principauté Franque d'Antioche, Paris 1940, p. 89.

ونهر الدامور: عبارة عن مجموعة أنهار هى: نهر الجابون، نهر الصفا، نبع القاع، ونبع دارة، ويبلغ طوله ٤٠ كيلومترًا، ويصب فى البحر المتوسط. انظر:

Rey, Les Colonies Franques de Syrie aux XI° et XIII° siècles, Paris 1883, p. 521.

ذكر صالح بن يحيى أنه فى عام ١٠٢٧ م / ٤١٨هـ كان أحد أحداده، ويدعى أبا إسحق إبراهيم أميرًا بالبيرة[١٨] من قبل خلفاء مصر الفاطميين[١٩] ، فى حين تولى ابنهُ الأمير إبراهيم الملقب بمجد الدولة حكم مدينة صيدا وظل بها إلى أن استولى عليها الفرنج عام ١١١٠م/ ٥٠٤هـ[٢٠]، فانتقل إلى إقليم الغرب الذى كان قد خربه الفرنج قبل استيلائهم مباشرة على مدينة صيدا وتركوه قاعًا صفصفًا بعد أن قتلوا من طالته أيديهم ولاذ بالفرار كل من تمكن من الهرب، ومن بين هؤلاء الذين

---

[١٨] وهى تقع على الضفة الشرقية لنهر الفرات جنوب غرب الرها بحوالى ٨٠ كم، وهذا الاسم يطلق على عدة مواضع، فأما الموضع الذى يعنينا فذكر ياقوت أن البيرة «بلدة قرب سميساط بين حلب والثغور، وهى حصينة ولها رستاق واسع...» ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ١، ص ٥٢٦، والبيرة أيضًا «من قرى وادى بطنان من أعمال حلب» وأيضًا البيرة «من قرى كفر طاب»: ياقوت الحموى: المشترك وضعًا والمفترق صقعًا، جوتنجن ١٨٤٦م ص ٧٥، والبيرة أيضًا: «بلدة بين بيت المقدس ونابلس»: ياقوت: نفس المصدر والصفحة، معجم البلدان، جـ١، ص ٥٢٦. أما البيرة التى فى الأندلس فأنفها أصل والنسبة الأليرى: البغدادى: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق وتعليق على محمد البجاوى، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م، ص ١١١. ولمزيد من التفاصيل عن أهمية موقع البيرة وما تشتهر به، راجع: محمد محمد فرحات: معاقل أعالى الفرات بين المسلمين والصليبيين ١٠٩٧-١١٥١م/ ٤٩٠هـ-٥٤٦هـ، رسالة ماجستير لم تنشر بعد، الإسكندرية ١٩٨٨م، ص ٤٩ وما بعدها.

[١٩] صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٦٩، انظر أيضًا: فيليب حتى: المرجع السابق، ص ١٧٠، ح٢.

[٢٠] تمكن الصليبيون من الاستيلاء على مدينة صيدا بالأمان بعد حصار دام سبعة وأربعين يومًا وذلك فى الرابع من ديسمبر ١١١٠م/ العشرين من جمادى الأولى ٥٠٤هـ عن ذلك انظر:

Albert d'aix, Historia Hierosolymitana, Ed. R.H.C.Occ. Tome IV, Paris 1879, p. 679; Mattieu d'Edesse, Extraits de la Chronique de Mattieu d'Edesse, Ed. R.H.C. Doc. Arm., Paris, 1869, T.1, p. 17; William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond the Sea, Trans. by Bab Cock and Krey, 2vols, New York, 1943, Vol, I, pp. 487-88.

انظر أيضًا: ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، بيروت ١٩٠٨م، ص ١٧١، ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ٩ ج، دار الفكر، بيروت ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، جـ٨، ص ٢٦٠.

ولمزيد من التفاصيل عن سقوط المدينة فى أيدى الصليبيين انظر: أسامة زكى زيد: صيدا ودورها فى الصراع الصليبى الإسلامى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١م، ص ٩١-٩٩.

بحرا الأمير أبو العشائر بحتر الذى كان لا يزال صغيرًا فى ذلك الوقت[٢١] فتولى الأمير مجد الدولة إبراهيم حكم الإقليم -من قبل طغتكين أتابك دمشق ١١٠٤-١١٢٨م/٤٩٨-٥٢٢هـ- فقام بتنظيمه وإعادة إعماره مرة أخرى بعد أن عاد إليه كل من اضطر إلى الهرب إبان الهجوم الفرنجى على الإقليم[٢٢].

ومهما يكن من أمر فقد تمتع البحتريون بقدر وافر من الحرية إبان فترة حكم الأمير مجد الدولة إبراهيم ١١١٠-١١٢٦م/٥٠٤-٥٢٠هـ؛ نظرًا لقصر يد الفرنج عليهم، وساعدهم فى ذلك طبيعة بلادهم الجبلية. ونظرًا لعدم انضوائهم للنفوذ الصليبى بالمنطقة ورفضهم دفع الضرائب لهم، فضلاً عن انحيازهم لحكام دمشق المسلمين[٢٣]، أوجس الصليبيون منهم خيفة واستشعروا منهم الخطر؛ مما دفع بالملك بلدوين الثانى (١١١٨-١١٣١م / ٥١٢-٥٢٦هـ) إلى الحضور بنفسه للإشراف على تشييد قلعة منيعة فى جبال بيروت لكبح جماح البحتريين وإجبارهم على الطاعة، وقد أطلق عليها اسم قلعة مونت جلانين Mont Glainen أو مونت جلافيانوس Mont Glavianus، وهى تبعد حوالى ستة أميال عن مدينة بيروت، وذلك فى أكتوبر عام ١١٢٥م / ٥١٩هـ[٢٤]، مما يعكس لنا مدى ما كان يشكله البحتريون من خطر على حدود مملكة بيت المقدس الصليبية فى تلك المنطقة.

---

(٢١) Clermont, Op. Cit., p. 26.

(٢٢) Idem.

(٢٣) صالح بن يحيى: المصدر السابق، جـ١، ص ٦٩. انظر أيضًا:
Clermont, Op. Cit., p. 25.

(٢٤) Fulcher of Chartres, A History of The Expedition to Jerusalem, Trans. by Frances Rita Ryan, (Sisters of St. Joseph), Edited with an introduction by Harold's Fink, Knuville, U.S.A., 1969, p. 226; cf. also: Nickerson, Op. Cit., pp. 156-57.

أدى تشييد الصليبيين لقلعة مونت جلاتين إلى الحد من حرية البحتريين في مزاولة أنشطتهم اليومية من زراعة وغيرها وسبب لهم أضرارًا بالغة وألحق بممتلكاتهم خسائر مادية فادحة، فضلاً عن أن الصليبيين تمكنوا -بفضل موقع القلعة- من تحسس أخبار البحتريين ونجحوا في إلقاء القبض على ستة من ذوى الشأن منهم[٢٥]؛ لذلك اضطر البحتريون إلى الرضوخ لمطالب الصليبيين فقدموا لهم الضرائب نظير عدم التعرض لهم ولممتلكاتهم والسماح لهم بمزاولة أنشطتهم اليومية[٢٦].

والعجيب أن صالح بن يحيى قد صمت عن ذكر هذا الحدث الذى لم يشر إليه سوى المؤرخ اللاتينى فولشر أوف شارتر Fulcher of Charter، كما صمت عن ذكر غيره من الأحداث الأخرى، إلا أننا نلتمس له العذر فى ذلك؛ إذ أنه وكما ذكر فى مقدمة كتابه قد أوقف هذا العمل على أهل بيته فقط لإبراز مآثر أجداده ليتوارثها الخلف عن السلف جيلاً بعد جيل وذلك من خلال ما ورد فى مناشيرهم الرسمية التى لم يكن الهدف منها الإشارة إلى الأحداث التاريخية وذكر تفاصيلها بقدر ما كانت تُعنى بإبراز العلاقة بين البحتريين وبين كل من دمشق والقاهرة هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن أول منشور خاص بالبحتريين أورده صالح بن يحيى فى كتابه يرجع تاريخه إلى عام ١١٤٧م/٥٤٢هـ[٢٧] وقد بعث به مجير الدين آبق أمير دمشق[٢٨]، وتاريخ هذا المنشور يلى تاريخ تشييد قلعة مونت جلاتين بنحو اثنتين وعشرين سنة.

---

(٢٥) Fulcher, Op. Cit., Loc. Cit.

(٢٦) Nickerson, Op. Cit., p. 149, n.1.

(٢٧) راجع نسخة هذا المنشور فى: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٦٧.

(٢٨) تولى حكم دمشق فى الفترة من ١١٤٠-١١٥٦م / ٥٣٤-٥٤٩هـ، ونظرًا لحداثة سنه قام معين الدين أنر بتدبير شئون البلاد، واستمر مجير الدين آبق فى الحكم حتى سنة ١١٥٦م عندما عزله نور الدين عن دمشق وضمها إليه فرحل بعدها إلى بغداد حيث توفى هناك. وللمزيد راجع: ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص ٤٥-٤٦.

وعلى أي حال، خلف الأمير أبو العشائر بحتر بن علىّ الأمير مجد الدولة إبراهيم فى حكم إقليم الغرب وذلك فى الفترة من ١١٢٦-١١٥٧م/ ٥٢٠-٥٥٢هـ وقد اتسمت العلاقات الصليبية البحترية إبان عهد هذا الأمير بنوع من الهدوء والاستقرار[٢٩]؛ إذ أدرك البحتريون أنه ليس من الحكمة معاداة الصليبيين؛ نظرًا لعدم وجود القوة الإسلامية التى بوسعها حمايتهم والدفاع عنهم إذا ما تعرضوا للخطر الصليبى هذا من جهة، كما أدرك الصليبيون أن من مصلحتهم الإبقاء على علاقات ودية مع البحتريين إذا ما أرادوا لحدودهم الشرقية أن تنعم بالأمن والاستقرار من جهة أخرى، ولأن الإبقاء على البحتريين موالين لهم يعود عليهم بالمنفعة أكثر من معاداتهم حتى وإن كان ميزان القوى فى صالحهم؛ لذلك اتسمت العلاقات الصليبية البحترية إبان تلك الفترة بالسلام والاستقرار، و لم يعكر صفوها سوى بعض الغارات القليلة ضد الصليبيين فى المنطقة، إلا أنها كانت غارات خاطفة و لم تكن مؤثرة بأى حال من الأحوال ومثال ذلك ما حدث فى عام ١١٥١م/٥٤٦هـ عندما قام الأمير أبو العشائر بُحتر بالهجوم على بعض الفرنج عند نهر الغدير[٣٠] بالقرب من بيروت وتمكن من قتل عدد منهم بينما فر الباقون إلى بيروت للاحتماء بها[٣١]، وأغلب الظن أن هؤلاء الفرنج كانوا عابرين المنطقة و لم يكونوا من صليبيّى صيدا أو بيروت التى تتاخم حدودهما أملاك البحتريين، والدليل على ذلك أننا لم نسمع عن رد فعل صليبى إزاء هذا الهجوم. ومن العجيب أيضًا أن المصادر المعاصرة وغير

---

(٢٩) Lammens, Op. Cit., p., 11.

(٣٠) نهر صغير جنوب بيروت. انظر:

Clermont, Op. Cit., p. 25, n. 4.

(٣١) ابن سباط: صدق الأخبار فى نسبة آل تنوخ، نشر ضمن كتاب حيدر أحمد الشهابى، ص ٥٦٦. انظر أيضًا:

Churchill, Op. Cit., p. 238.

المعاصرة من غربية وإسلامية باستثناء ابن سباط[٣٢] لم تُشر البتة إلى هذا الهجوم؛ مما يوضح لنا أن البحتريين كانوا على قناعة تامة بضرورة مهادنة الصليبيين في تلك الفترة وعدم معاداتهم حتى يتمكنوا من العيش في سلام دون أن يتعرضوا لخطرهم.

ومهما يكن من أمر فقد خلف الأمير شمس الدولة أبو العز كرامة ابن بحتر والده في حكم إقليم الغرب وذلك في سنة ١١٥٧م / ٥٥٢هـ[٣٣]. وقد ظلت العلاقات الصليبية البحترية على صفائها السابق طوال فترة حكمه رغم تغير موازين القوى بالمنطقة؛ إذ أخذ ميزان القوى تعتدل كفتيه خاصة بعدما تمكن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي ١١٤٦-١١٧٤م/٥٤١-٥٦٩هـ من ضم دمشق إلى ممتلكاته سنة ١١٥٦م/٥٤٩هـ فوحد بذلك بين بلاد الشام جميعها تقريبًا، وأصبحت الجبهة الإسلامية قوة كبيرة لها وزنها بمقدورها التصدى للخطر الصليبي وإضفاء حمايتها على رعاياها أمثال البحتريين وغيرهم.

وقد ذكر صالح بن يحيى أن "الأمير كرامة مال إلى جانب الملك العادل نور الدين وأهمل الفرنج"[٣٤]. ويستشف من هذه العبارة أن البحتريين قبل ذلك كانوا ممالئين للفرنج ومنحازين إليهم تمامًا ثم مالوا إلى جانب نور الدين بعدما قويت شوكته وأصبحت لديه القوة التي تمكنه من الدفاع عن رعاياه. ورغم ما أبداه البحتريون من ميل تجاه نور الدين

---

[٣٢] والجدير بالذكر أن ابن سباط كان يعمل في خدمة الأمراء البحتريين، فليس من الغريب أن ينفرد بذكر هذه الحادثة وغيرها لقربه من البحتريين.

[٣٣] لمزيد من التفاصيل عن شخصية هذا الأمير وأهم أعماله راجع: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٧١.

[٣٤] الجدير بالذكر أن الأمير كرامة قدم دمشق حيث مَثُل بين يدى الملك العادل نور الدين الذى خلعه بإنعامه، وأعطاه منشورًا يثبت ملكيته لإقليم الغرب، وأغدق عليه منحًا كثيرة منها عدة قرى في البقاع ووادى التيم، كما كتب للأمير كرامة مرسومًا يحثه فيه على جهاد الفرنج ويأمر رعاياه بطاعته ويحذرهم من مخالفته في هذا الأمر. لمزيد من التفاصيل عن هذه المناشير راجع: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٧١-٧٢.

محمود، إلا أنهم تمتعوا بنوع من الاستقلال الذاتى فلم يخضعوا لاى من القوتين الصليبية أو الإسلامية وتأرجح ولاؤهم بين هؤلاء وأولئك وفقًا لما تقتضيه مصلحتهم الشخصية وقدموا خدماتهم المختلفة لمن يدفع المقابل[٣٥] وكأنهم ورثوا الدور الذى كانت تلعبه دمشق قبل ضم نور الدين لها[٣٦]؛ لذا حرص كل من الصليبيين والمسلمين على كسب ودهم واستقطابهم إلى جانبهم لما يشكلونه من أهمية لمتاخمتهم لحدود الطرف الآخر[٣٧]. وقد نجح البحتريون فى القيام بهذا الدور إلى حد بعيد، الأمر الذى جعل كلاً من المسلمين والصليبيين يشكون فى صدق ولائهم من جهة، ولا يثقون فى وعودهم قط من جهة أخرى لهذا قام البحتريون بإنشاء عدد من الحصون والقلاع المنيعة ليحتموا بها إذا ما دارت عليهم الدوائر، ولعل أشهر هذه الحصون حصن عرامون وسرحمول[٣٨].

ويبدو أن الصليبيين قد عز عليهم ميل البحتريين لنور الدين لما كان بينهما من مودة من قبل؛ لذا أسر سيد بيروت الصليبى هذا الامر فى نفسه ولم يبده لهم تحينًا للفرصة المواتية التى يثأر فيها منهم، واعتمادًا على الهدنة المبرمة بينهم[٣٩] أظهر مشاعر ودية كاذبة حيال أبناء الأمير كرامة -الذين

---

(٣٥) Nickerson, Op. Cit., p. 149.

(٣٦) لمزيد من التفاصيل عن سياسة دمشق المزدوجة راجع:
ابن القلانسى: الذيل، ص ٢٧١-٧٣، ٢٩٨، ابن الأثير: الكامل، جـ٨، ص ٣٦٧، جـ٩، ص ٢٠، ٢١، ابن واصل: مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، جـ١، تحقيق د. جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٠م، ص ٨٨، ١١٣. انظر أيضًا:
William of Tyre, Op. Cit., pp. 190-92.

(٣٧) صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٧١-٧٢، ٨٣-٨٤، ابن صباط: المصدر السابق، ص ٥٦٩، شافع بن على: حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق ونشر عبد العزيز بن عبد الله الحويطر، جامعة الملك عبد العزيز، المكتبة المركزية، جدة، بدون تاريخ، ص ٧٧. انظر أيضًا:
Jean Richard, op. Cit., p. 396; Claude Cahen, Op. Cit., p. 244.

(٣٨) Clermont, Op. Cit., p. 1; cf. also: Lammens, Op. Cit., p. 12.
ويقع كل من حصن سرحمول وعرامون فى مقاطعة الغرب الأسفل، انظر: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٧٠ ح٢، ص٧١ ح٢.

(٣٩) Clermont, Op. Cit., p. 29; cf. also: Churchill, Op. Cit., p. 237.

خلفوا أباهم فى حكم الإقليم[٤٠]- وحرص على الاجتماع بهم مرارًا للصيد حتى اطمئنوا لجانبه. وعندما أحس سيد بيروت بهذا دعاهم ذات ليلة لحضور عُرس ولده، فلبى الثلاثة الكبار هذه الدعوة وحضروا إلى بيروت وبرفقتهم عدد قليل من أتباعهم، ولما دخلوا القلعة لم يخرجوا منها فكان هذا هو آخر العهد بهم. وفى صبيحة اليوم التالى قام سيد بيروت ومن معه من قوات بالإغارة على الإقليم وجاسوا خلال دياره ناشرين الرعب والفزع بين أهله وقتلوا عددًا كبيرًا منهم بينما فر العديد من سكانه للاحتماء بالأودية المجاورة خوفًا من بطش الصليبيين، ومن بين هؤلاء الذين نجوا زوجة الأمير كرامة وولدها الصغير حجىّ شقيق الإخوة الثلاثة الذين قتلهم سيد بيروت[٤١].

ومهما يكن من أمر فإن هناك سؤالين يطرحان نفسيهما على بساط البحث: أولهما متى تمت هذه الواقعة؟ والآخر مَن مِن أمراء الفرنج الذى قام بهذا العمل؟ يذكر صالح بن يحيى أن هذه الواقعة وقعت فى أواخر أيام الملك العادل نور الدين محمود دون تحديد تاريخ محدد لها[٤٢]، بينما ذكر ابن سباط أنها وقعت فى ٥٧٠هـ/ ١١٧٤-١١٧٥م[٤٣]. وقد أشار أحد المؤرخين المحدثين إلى أن نور الدين منح قرية جبعة للأمير حجى بعد عدة أيام من هذه الواقعة[٤٤]. وبالرجوع إلى ما ذكره صالح بن يحيى نجده

---

[٤٠] لم تمدنا المصادر المتاحة بمعلومات تحدد تاريخ وفاة الأمير كرامة بن بحتر، وكل ما نعلمه انه ترك من بعده أربعة أبناء ذكور أصغرهم يدعى جمال الدين حجى، صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٧٤.

[٤١] صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٧٤، ابن سباط: المصدر السابق، ص ٥٦٦، انظر أيضًا: Clermont, op. Cit., p. 29.

[٤٢] صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٧٥.

[٤٣] ابن سباط: المصدر السابق، ص ٥٦٦.

[٤٤] الشيال: أعيان الأعيان، ص ٢٥٥، ولعل نور الدين منح الامير حجى هذه القرية تسرية له عما لحق بأشقائه. هذا و لم نتعرف على موضع قرية جبعة.

يحدد تاريخ تلك المنحة فى مايو ١١٧٠م/ رمضان ٥٦٥هـ[٤٥]. وبناء عليه يثبت للباحث أن هذه الحادثة وقعت فى ١١٧٠م / ٥٦٥هـ. هذا ولم تمدنا المصادر المتاحة بمعلومات توضح شخصية سيد بيروت الذى قام بتلك المؤامرة، وإن أشار أحد المؤرخين المحدثين إلى أن جوتييه الثالث بريسبار Gautier III هو الذى قام بتلك المؤامرة[٤٦] وهذا الرأى لا يمكن قبوله على اعتبار أنه تولى حكم بيروت خلال الفترة من ١١٥٧م / ٥٥٢هـ إلى ١١٦٦م / ٥٦١هـ، وهى فترة تسبق وقوع تلك الحادثة.

على أى حال بعدما انجلت الغارة الصليبية على إقليم الغرب وعاد المغيرون من حيث أتوا، أخذ سكان الإقليم فى العودة ثانية إلى ديارهم. ولما كان الأمير حججيّ لا يزال صغيرًا - لم يتجاوز بعد العاشرة من عمره وقتئذ- لذا لم يكن بمقدوره القيام بهجوم مضاد للثأر من الصليبيين لما ارتكبوه فى حق أشقائه الثلاثة وغيرهم من سكان الإقليم، وفضل أن ينتظر الفرصة المواتية لذلك.

ومهما يكن من أمر، أدى غدر الصليبيين بالأمراء البحتريين ١١٧٠م/ ٥٦٥هـ إلى توتر العلاقات بين الجانبين ودفع البحتريين إلى الانحياز التام للجانب الإسلامى ليثأروا مما ألحقه الصليبيون بهم، فقدموا خدمات كبيرة لصلاح الدين، فأطلعوه على دروب المنطقة لمعرفتهم التامة بخباياها وشاركوه فى غاراته التى شنها على مدينتى صيدا وبيروت ١١٧٩م /

---

[٤٥] صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٧٦. وقد أشار تشرشل إلى أن هذه الكائنة وقعت فى ١١٦٠م، وهذا خطأ تاريخى واضح. انظر:

Churchill, Op. Cit., p. 238.

[٤٦] لويس شيخو: تاريخ بيروت، ص ٦٨-٦٩، وجوتييه الثالث هو الابن الأكبر لحى الثانى Guy II سيد بيروت. ولمزيد من التفاصيل عن شخصيته وأهم أعماله انظر:

Lignage d'Outre-mer, cf. Assises de Jerusalem, T. II, Paris, 1843, p. 459; Rohricht Regesta Hierosolymitani, Innsbruck, 1893, doc. 325.

بينما ذكر جين ريتشارد أن وولتر الثانى بريسبار هو الذى قام بتلك المؤامرة

The Latin Kingdom, 1, p. 28.

٥٧٥هـ، وإن لم تشر المصادر إليهم صراحة واكتفت فقط بالإشارة إلى أن صلاح الدين قد استعان فى غاراته تلك بالقبائل العربية القاطنة فى مجاورات بيروت[٤٧]، ولما كان البحتريون هم سكان تلك المنطقة ولديهم الدافع للانتقام من الصليبيين؛ لذا فمن المرجح أنهم هم الذين قاموا بشن تلك الغارات.

وفى سنة ١١٨٢م / ٥٧٨هـ عندما أراد صلاح الدين غزو بيروت عسكرت قواته فى منطقة البقاع التى تعد من ممتلكات البحتريين[٤٨]، وظل بها ينتظر ظهور الأسطول المصرى ليتم حصار المدينة برًا وبحرًا ؛ لذا بث عيونه وكشافته فى جبال بيروت ليترقبوا لحظة وصول الأسطول ويخبروه بذلك ليبدأ الهجوم البرى والبحرى على المدينة[٤٩]. ومن المرجح أن يكون هؤلاء العيون والكشافة من البحتريين أنفسهم لأنهم سكان تلك المنطقة

---

(٤٧) William of Tyre, Op. Cit., p. 447, cf. also Grousset, Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, 3 vols, Paris 1948, vol II, p. 671.

انظر أيضًا: المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، نشر محمد مصطفى زيادة، الجزء الأول، القسم الثالث، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٩، ص ٦٧، أبو شامة: الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ٢جـ، مطبعة وادى النيل ١٢٨٧-١٢٨٨هـ، جـ٢، ص ٨-١١، ولمزيد من التفاصيل عن تلك الغارات وموقف رينالد صاحب صيدا انظر: أسامة زكى: المرجع السابق، ص ١٦٢-١٦٤.

(٤٨) William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, p. 475, cf. also, Grousset, Op. Cit., Vol. II., p. 710; Churchill, Op. Cit., p. 237.

انظر أيضًا: أبو شامة: الروضتين، جـ٢، ص ٢٩، الحنبلى: شفاء القلوب فى تاريخ بنى أيوب، تحقيق ناظم رشيد، بغداد ١٩٧٩م، ص ٩٨، أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر، ٤ ج فى مجلدين، بيروت بدون تاريخ، جـ٣، ص ٦٤، البندارى: سنا البرق الشامى، اختصار كتاب البرق الشامى للعماد الكاتب الأصفهانى، تحقيق د. فتحية البحاوى، القاهرة ١٩٧٩م، ص ٢٠٠-٢٠١.

(٤٩) لمزيد من التفاصيل عن هجوم صلاح الدين على بيروت وما آل إليه، انظر:

William of Tyre, Op. Cit., Vol. II, pp. 475-80, cf. also Grousset, Op. Cit., Vol. II, p. 710.

انظر أيضًا: ابن الأثير: المصدر السابق، جـ٩، ص ١٥٦، أبو شامة: المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٩، البندارى: المصدر السابق، ص ٢٠٠-٢٠١.

وهم أدرى بشعابها ودروبها من سواهم، ولاشك أيضًا أنهم قدموا خدماتهم لصلاح الدين أثناء فترة انتظاره بقواته فى سهل البقاع، مما يعكس لنا استمرار تدهور العلاقات بين الصليبيين والبحتريين وانحياز البحتريين التام إلى جانب صلاح الدين، وخير دليل على ذلك أن البحتريين بقيادة الأمير حجىّ قاموا عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ -بعد معركة حطين- بالانضمام إلى قوات صلاح الدين الزاحفة لفتح بيروت وشاركوا فى العمليات العسكرية ضد الصليبيين. واعترافًا بجميلهم قام السلطان صلاح الدين بعد فتح بيروت بتقريب الأمير حجىّ إليه وقال له: "ها نحن قد أخذنا ثأرك من الفرنج فطيب قلبك وأنت مستمر مكان أبيك وإخوتك" وكتب له منشورًا يقره فيه على إقطاعه[٥٠] واعترف بنفوذه على المنطقة الجبلية لصيدا وبيروت[٥١].

على أى حال، بعدما تمكن الصليبيون من إعادة استيلائهم على ساحل بيروت ١١٩٧م/٥٩٣هـ لم ينسوا موقف البحتريين السابق منهم بعد حطين وانحيازهم التام لصلاح الدين وما قدموه له من خدمات، فضلاً عن احتفاظهم بالمناطق الداخلية التى كانت تابعة لهم قبل فتح صلاح الدين لها ١١٨٧م / ٥٨٣هـ[٥٢]، فتعمدوا مضايقة البحتريين وإلحاق الأذى بهم وبممتلكاتهم؛ مما أعاقهم عن مزاولة أنشطتهم اليومية التى اعتادوا عليها من قبل؛ لذا أرسل الأمير جمال الدين حجىّ رسالة إلى الملك العادل شقيق

---

(٥٠) راجع تفاصيل هذا المنشور فى صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٧٥-٧٦، ابن سباط: المصدر السابق، ص ٥٦٦.

(٥١) Clermont, Op. Cit., p. 29.

(٥٢) Richard of Cornwall, Letter to Baldwin of Rierers and Robert Clerck Rome 1, July, 1241 in Mattew, Paris, Vol. I, p. 142.

انظر أيضًا: المقريزى: السلوك، جـ ١، ق٢، ص ٣٠٣-٣٠٤، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، قام على نشره أنطون خاطر وأزولد بورمستر، المجلد الرابع، جـ٢، القاهرة ١٩٧٤، ص ١٠٧.

الناصر صلاح الدين[٥٣] ١١٩٦-١٢١٨م/ ٥٩٢-٦١٥هـ يشكو فيها من مضايقة الفرنج لهم وما يعانونه من متاعب بسبب تلك المضايقات. وقد طلب الملك العادل من الفرنج -اعتمادًا على الهدنة المبرمة بينهما[٥٤]- حُسن معاملة البحتريين وأرسل خطابًا للبحتريين يحمل هذا المعنى[٥٥]. ويبدو أن الفرنج لم يلتزموا تمامًا بوعودهم تجاه البحتريين، والدليل على ذلك أن الأمير جمال الدين حجيّ أرسل خطابًا آخر إلى العزيز عثمان ملك مصر ١١٩٣-١١٩٨م / ٥٨٩-٥٩٥هـ في ذلك الوقت يشرح فيه الحالة التي باتوا عليها وما يسببه الفرنج لهم من مضايقات، ويبدو أن العزيز عثمان تمكن من إقناع الصليبيين بضرورة التوقف عن مضايقة البحتريين، كما حثهم على حُسن معاملتهم، وأرسل خطابًا يحمل هذا المعنى إلى الأمير جمال الدين حجي[٥٦].

مهما يكن من أمر فقد أخذت العلاقات الصليبية البحترية تشهد بداية مرحلة جديدة من تاريخها اتسمت بروح التعاون والوئام وإن ظل البحتريون خلالها يمارسون سياستهم المعهودة والتي ترتكز على ضرورة

---

[٥٣] أخطأ صالح بن يحيى عندما ذكر أن الأمير جمال الدين حجي أرسل خطابه إلى الملك الأفضل علي بن صلاح الدين ١١٩٧م/ ٥٩٣هـ، فالثابت أن الملك العادل هو الذي كان يتولى حكم دمشق في ذلك العام، راجع: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٧٧.

[٥٤] عقدت هذه الهدنة بين الملك العادل والملك عمورى الثاني سنة ١١٩٨م/ ٥٩٤هـ، وهي مماثل الهدنة التي عقدها صلاح الدين مع الملك ريتشارد قلب الأسد قبل ذلك بسنوات وإن زيد عليها أن يحتفظ الصليبيون ببيروت وحيفا في مقابل بقاء يافا في أيدي المسلمين. وللمزيد انظر:

Eracle
mer, Ed. R.H.C., H. Occ., T. II, Paris, 1839, p. 228; Ernoul, Chronique d'Ernoul et de Bernard le Trésorier, Ed. L. de Maslatrie, Paris, 1871, pp. 316-17.

انظر أيضًا: ابن الأثير: المصدر السابق، جـ٩، ص ٢٣٨، أبو الفداء: المصدر السابق، جـ٣، ص ٩٤، أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ١٣، ابن واصل: المصدر السابق، نشر الشيال، مصر ١٩٥٣م، جـ٣، ص ٧٨.

[٥٥] ابن سباط: المصدر السابق، ص ٥٦٦. انظر أيضًا: الشدياق: المرجع السابق، ص ٢٢٦.

[٥٦] صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٧٨.

وجود علاقات طبيعية بينهم وبين القوتين الصليبية والإسلامية مع عدم الانحياز التام لأى منها بقدرما أمكنهم ذلك. وخير دليل يبين لنا تحسن تلك العلاقات ما حدث فى ١٢٤٠م/ ٦٣٨هـ من عودة الأجزاء الداخلية من بيروت -والتى كان يحتفظ بها البحريون منذ ١١٨٧م/٥٨٣هـ- إلى الصليبيين[٥٧] إثر الاتفاق الذى أبرم بين الصالح نجم الدين أيوب ملك مصر ١٢٤٠-١٢٤٩م/ ٦٣٧-٦٤٧هـ وريتشارد أوف كورنويل Richard of Cornwall قائد الحملة الإنجليزية[٥٨]. وفى العام التالى عام ١٢٤١م/٦٣٩هـ استعان باليان دى إبلين Balian d'Iblin سيد بيروت ١٢٣٦-١٢٤٣م/ ٦٣٣-٦٤١هـ[٥٩] بأعداد كبيرة من البحريين للتصدى لريتشارد فيلانجيرى Richard Filangieri المندوب الإمبراطورى فى الشرق وإفشال مخططه لضرب الحزب المعارض للإمبراطور فريدريك الثانى

---

[٥٧] فى الخطاب الذى أرسله الأمير ريتشارد كورنويل قائد الحملة الإنجليزية ١٢٤٠م/٦٣٨هـ الذى أرسله إلى أصدقائه فى الغرب ذكر الإنجازات التى حصل عليها والمدن التى استردها الصليبيون ومن جملتها المنطقة الداخلية لبيروت وغيرها من المدن، عن ذلك انظر:

Richard of Cornwall, Op. Cit., Vol. I, p. 142; Eracles, Op. Cit., T. II, pp. 420-23.

انظر أيضًا: المقريزى: المصدر السابق، جـ١، ق٢، ص ٣٠٣-٣٠٤، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، م٤، جـ٢، ص ١٠٧.

[٥٨] لمزيد من التفاصيل عن حملة ريتشارد أوف كورنويل انظر:

Annales de Terre Sainte, Publiées par Rohericht et G. Raynoud, in (A.O.L.) T. II, p. 440; Eracles, Op. Cit., pp. 413-15; William of Nangi, Gesta Sanctae Memoriae Ludovici Regis, in R.H.G.F. Vol. XX, ppp. 328-29.

انظر أيضًا: المؤلف المجهول: تتمة كتاب وليم الصورى المنسوب خطأ لرونسلان، ترجمة وتعليق أسامة زكى زيد، مركز الدلتا للطباعة ١٩٨٩م، ص ٦٤-١١٢.

[٥٩] هو الابن الأكبر ليوحنا دى إبلين سيد بيروت، وقد تولى حكم المدينة بعد وفاة أبيه سنة ١٢٣٦م/٦٣٣هـ، وتمكن من إلحاق الهزيمة بأنصار الإمبراطور فريدريك فى الشرق وطردهم من مدينة صور. للمزيد عن ذلك انظر:

Philip of Novar, The Wars of Frederick II Against the Ibelins in Syria and Cyprus, Trans. by J.L. La Monte and M.J. Hubert, New York 1936, pp. 171-184; Annales de Terres Sainte, p. 441; Amadi, Chronique d'Amadi et de Strambaldi. Ed. Mas Latrie R., Hisoire Politique, 2 vols., Paris 1891-93, pp. 189-194.

Frederich II ١٢١٢-١٢٥٠م/ ٦٠٩-٦٤٨هـ[٦٠]. فذكرت المصادر الغربية أن باليان دى إبلين قد حشد قواته العسكرية واستعان بأعداد كبيرة من سكان المناطق الجبلية لبيروت من "الكفار والمسيحيين"[٦١]. وبما أن البحتريين هم الذين يقطنون جبال بيروت فمن المرجح أنهم هم المقصودون بكلمة الكفار التى أوردتها المصادر السابقة، ويعد هذا دليلاً قويًا على تحسن العلاقات الصليبية البحترية ولعل المقصود بكلمة "المسيحيين" الموارنة.

ومهما يكن من أمر فقد ظلت العلاقات الصليبية البحترية تشهد تحسنًا مضطردًا بينهما حتى اعتلاء السلطان بيبرس البندقدارى عرش مصر ١٢٦٠-١٢٧٧م/ ٦٥٨-٦٧٦هـ الذى أخذ على عاتقه مهمة تصفية الوجود الصليبى وقطع دابره من المنطقة؛ لذلك لم يألُ جهدًا فى الاستعانة بكل وسيلة تعينه على تحقيق هذا الهدف. وإدراكًا منه لأهمية الدور الذى يلعبه البحتريون عمد إلى استقطابهم إلى جانبه لإبعادهم عن الصليبيين ليحرمهم مما يقدمه البحتريون لهم من خدمات هذا من جهة، والاستفادة منهم فى تحقيق هدفه من جهة أخرى، فطلب من البحتريين مد يد العون له وإطلاعه على أخبار الفرنج المجاورين لهم[٦٢]، فأبدى البحتريون استجابة كبيرة لهذا الأمر ورحبوا به خاصة وأن ذلك لا يتعارض مع السياسة التى رسموها لأنفسهم من قبل. وقد تبادل الجانبان العديد من الرسائل التى

---

[٦٠] حاول ريتشارد فيلانجيرى ممثل الإمبراطور فريدريك فى الشرق ضرب الحزب المعارض للإمبراطور الذى كان يتزعمه باليان دى إبلين سيد بيروت بعضهم البعض واستمالة بعضهم إلى تأييد السلطة مع يوحنا فالان John Vallian ووليم دى كونش William de Conches اللذين انشقا عن حزب الإبلين وكلفهما بالعمل على جذب نبلاء آخرين لحزب الإمبراطور، ولما علم ريتشارد فيلانجيرى بقدوم سيد بيروت وأنصاره انسحب على الفور إلى صور. وللمزيد انظر:

Amadi, Op. Cit., pp. 188-89; Philip of Novar, Op. Cit., pp. 171-73; Annales de Terre Sainte, p. 441.

[٦١] Amadi, Op. Cit., p. 188.

[٦٢] صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٨٦،٩٨؛ انظر أيضًا:

Clermont, Op. Cit., p. 21, n. 1.

تحمل فى طياتها أخبار الفرنج المجاورين فى صيدا وبيروت ورد السلطات المملوكية على ذلك بالشكر والتقدير والحث على مداومة المراسلات بينهما، ومن أمثلة ذلك الخطاب الذى أرسله السلطان بيبرس إلى جمال الدين حجىّ وزين الدين بن على[٦٣] يشكرهما فيه على حسن تعاونهما معه وإطلاعه على أخبار العدو "ويطلب منهما أن يستمرا على ذلك ويهتما به وليطيب قلبهما وليشرحا صدرهما فسوف يجنيان وأخاهما ثمرة خدماتهما ومجهودهما وليطالعنا بالأخبار والمتحذرات والله يوفقهما"[٦٤]. وهناك أيضًا خطاب من أقوش النجيبى -نائب الشام- عن السلطان بيبرس إلى الأمير جمال الدين حجىّ يطلب منه ضرورة جمع العساكر التى لديه وتوجيهها إلى مدينة صيدا[٦٥]، مما يعكس لنا مدى التعاون الحقيقى بين الجانبين.

أدرك الصليبيون عظم الخطر الذى يأتى من جراء ما ينقله البحريون من معلومات عنهم للسلطات المملوكية وإطلاعهم على ما يجرى داخل بلادهم مما يتيح للمماليك فرصة أكبر للتعرف على أحوالهم وما يجرى بينهم، لذا فقد حاول جوليان Julien سيد صيدا الصليبى[٦٦] ١٢٣٩-

---

[٦٣] كان معاصرًا لجمال الدين حجى وأخيه سعد الدين خضر ولدى نجم الدين محمد بن جمال الدين حجىّ بن كرامة، وهو ابن عم جدهما وكان من أشجع أهل زمانه وأشدهم بأسًا، وكان أكرم وأوفر مروءة. ولمزيد من التفاصيل عن شخصيته راجع: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٧٢-٧٣، ٩٢-٩٣. راجع أيضًا جدول نسب بنى بحر فى آخر البحث.

[٦٤] راجع نص هذا الخطاب فى: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٩٧-٩٨، انظر أيضًا:
Clermont, op. Cit., p. 21.

[٦٥] راجع أيضًا نص هذا الخطاب فى: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٩٦-٩٧، انظر أيضًا:
Clermont, Op. Cit., p. 21.

[٦٦] هو ابن باليان حارنيه وآخر بارونات صيدا، وكان فارسًا شجاعًا ثقيل الوزن، وكان مشهورًا بحبه الشديد للنساء والمقامرة، وتنازل عن حكم بارونية صيدا للداوية سنداً لديونه المتراكمة عليه سنة ١٢٦١م/٦٦٠هـ. ولمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر:
LesGestes des Chiprois, cf. R.H.C. Doc. Arm., T. II, p. 775.
انظر أيضًا: أسامة زكى زيد: المرجع السابق، ص ٢٢٥-٢٢٦.

١٢٦١م/ ٦٣٧-٦٥٩هـ ثنى البحريين عن الاستمرار بالقيام بهذا الدور عن طريق إغرائهم بالمنح والوعود الكثيرة التى يسيل لها لعابهم، فتذكر الرواية العربية أن جوليان قام بمنح الأمير جمال الدين حجىّ بن نجم الدين محمد بن حجى[٦٧] ضيعة بقرية الدامور التى على الساحل لتكون ملكًا له ولولده ولمن يقوم مقامه على أن يكف الأمير عن نقل أخبارهم إلى السلطات المملوكية[٦٨]، مما يعكس لنا خطورة الدور الذى كان يلعبه البحريون على مسرح الأحداث السياسية إبان تلك الفترة.

وانطلاقًا من تلك السياسة التى رسمها البحريون لأنفسهم فقد عملوا جهد استطاعتهم على الإبقاء على علاقات ودية مع الصليبيين والمماليك على حد سواء و لم يشرعوا فى القيام بأى عمل قبل أن يروا فيه أنه يتمشى ومصلحتهم الشخصية؛ لذا لم يمنعهم قبولهم لمنحة جوليان سيد صيدا وما تعهدوا به له من أن يحافظوا على علاقاتهم الودية مع السلطات المملوكية واستمروا ينقلون إليهم أخبار الفرنج المجاورين لهم، ومن أمثلة ذلك الخطاب الذى أرسله جمال الدين حجىّ إلى السلطان بيبرس بأمر زواج ملك قبرص[٦٩] من ابنة سيد بيروت[٧٠]، وامتنان السلطان بيبرس بتعاون

---

[٦٧] هو الأمير جمال الدين حجى بن نجم الدين محمد بن حجى، ولد سنة ١٢٣٦م/٦٣٣هـ، وتوفى سنة ١٢٩٨م/٦٩٧هـ. ولمزيد من التفاصيل عنه انظر: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٨٠-٨١.

[٦٨] صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٨٣-٨٤. انظر أيضًا:

Jean Richard, Op. Cit., p. 396; Lammens, Op. Cit., p. 11.

[٦٩] هو هيو الثانى لوزيجنان ١٢٦١-١٢٦٧م/ ٦٦٠-٦٦٦هـ. ولمزيد من التفاصيل عن شخصيته وحياته انظر:

Makhairas, Recital Concerning the Sweet Land of Cyprus entitles "Chroniacle". Edited with a translation and notes by R.M. Dawkins, Vol. I, Oxford, 1932, p. 43; Du Cange, Les Familles d'Outre-mer, p. 235; cf. also Grouset, Op. Cit., Vol. III, p. 665.

[٧٠] هى الأميرة إيزابيل ابنة يوحنا الثانى سيد بيروت، وقد ورثت الإقطاعية بعد موت أبيها سنة ١٢٦٤م/ ٦٦٢هـ لأنه لم يعقب ذكورًا، وقد عرفتها المصادر العربية باسم "الدبونة" ربما تحريفًا لبيت إبلين. ولمزيد من التفاصيل انظر: ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، تحقيق الدول والملوك، تحقيق قسطنطين زريق، المطبعة الأمريكانية ببيروت، ١٩٤٢م، جـ ٧، ص ٣٥.

البحريين معه وشكرهم على ذلك[٧١]، وأخبرهم أنه كان على علم مسبق بهذا الأمر.

استمرت العلاقات البحرية الصليبية قائمة لم تنفصم عراها رغم أن ميزان القوى فى تلك الفترة كان يميل بوضوح لصالح الجبهة الإسلامية، فذكرت المصادر العربية أن الأمير زيد الدين وجمال الدين حجىّ وأخوه سعد الدين خضر[٧٢] قد أرسلوا رسالة إلى بوهمند السادس ١٢٥٢-١٢٦٨م/ ٦٤٩-٦٦٦هـ أمير طرابلس يظهرون له فيها الود، وبادلهم نفس هذه المشاعر فى رده عليهم[٧٣]. ولسوء طالع البحريين وقع خطاب بوهمند السادس بطريقة أو بأخرى فى يد السلطان بيبرس الذى تميز من الغيظ وأمر على الفور بالقبض على هؤلاء الأمراء الثلاثة فحبس زين الدين ابن على فى سجن مصر، وجمال الدين حجىّ فى الكرك، وأخاه سعد الدين خضر بقلعة عجلون، ثم جمع الثلاثة بعد ذلك فى سجن مصر ١٢٧١م/ ٦٧٠هـ. ولم تُجدِ مع بيبرس شفاعة الشافعين فيهم وأقسم أنه لن يطلق سراحهم إلا بعدما يفتح طرابلس وصيدا وبيروت، ومع ذلك لم يتورع عن هدم إقطاعاتهم أو يجردهم من ملكهم[٧٤].

---

[٧١] صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٨٣. انظر أيضًا:

Clermont, Op. Cit., p. 3.

[٧٢] سعد الدين خضر بن محمد هو شقيق جمال الدين حجىّ، كان رجلاً جليل القدر مغرم بالخيل والصيد، ولد فى رجب سنة ٦٣٩هـ، وتوفى فى ذى القعدة سنة ٧١٣هـ. ولمزيد من التفاصيل عن شخصيته راجع: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٨٧-٩٠.

[٧٣] صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٩٨. انظر أيضًا:

Clermont, Op. Cit., p. 21.

[٧٤] الجدير بالذكر أن الأمير بدر الدين بيليك الخازندار نائب السلطنة هو الذى حاول إقناع السلطان بيبرس بالإفراج عن الأمراء البحريين، إلا أنه فشل فى ذلك. انظر: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٩٨،٩٩؛ ابن سباط: المصدر السابق، ص ٥٦٨. انظر أيضًا:

Jean Richard, Op. Cit., p. 397; Claud Cahen, Op. Cit., p. 244.

ويستشف من إقدام بيبرس على سجن الأمراء البحريين مع عدم انتزاع إقطاعهم وتجريدهم من أملاكهم أنه لم يكن على يقين تام من تورطهم فى هذا العمل، ورغم أن المؤرخ صالح بن يحيى ينفى عن أسلافه تلك التهمة ويذكر أنها كانت مجرد مكيدة دبرها تقى الدين نجى ابن أبى الجيش الذى يضمر الحقد والحسد للبحريين بسبب ما وصلوا إليه من منزلة ومكانة[٧٥]. إلا أن الباحث يتشكك فى ذلك، فلو سلمنا أن الرسالة التى أرسلها الأمراء البحريون قد زورها تقى الدين نجا كما ذكر صالح بن يحيى فإن رد بوهمند السادس من غير شك لم يكن مزورًا، وأنه كان يعرف هؤلاء الأمراء ومكانتهم بدليل أنه أرسل الرد على خطابهم و لم يطلعنا على فحواه صالح بن يحيى لحاجة فى نفسه، وإذا قيل إن هؤلاء الأمراء قد بلغوا من الشهرة والمكانة العالية ما جعل بوهمند السادس وغيره من الصليبيين على دراية بمكانتهم نشير إلى أن هناك قرائن سابقة على هذا الحدث ولاحقة له تعزز ما ذهب إليه الباحث. فعندما استولى التتار على دمشق ١٢٦٠م/ ٦٥٨هـ أسرع الأمير جمال الدين حجى بن محمد إليهم لخطب ودهم وتبعه ابن أخيه الأمير زين الدين بن علي، ولما بلغهما نبأ خروج القوات المصرية تحت قيادة قطز تشاورا فى الأمر واتفقا على أن يتوجه زين الدين إلى المعسكر المصرى ويقيم جمال الدين عند التتار بدمشق، حتى إذا انتصر أحد الفريقين سد المنتصر خلة رفيقه. وقد أبلى زين الدين على بلاءً حسنًا فى معركة عين جالوت مما جعل قطز يقبل الشفاعة فيه[٧٦]. أما بالنسبة للأمير جمال الدين حجىّ بن محمد فلم يذكر صالح بن يحيى الذى أورد هذه الرواية موقف قطز منه، ولعل مقتل الأخير بعد معركة عين جالوت بوقت قصير

---

[٧٥] هو أحد أفراد قبيلة أبى الجيش التى اشتهرت بعداوتها للبحريين، عن ذلك انظر: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ١٠٢-١٠٣، انظر أيضًا:

Jean Richard, Op. Cit., p. 396.

[٧٦] صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٩٣-٩٤، ابن سباط: المصدر السابق، ص ٥٦٧، انظر أيضًا:

Jean Richard, Op. Cit., Loc. Cit.; Lammens, Op. Cit., p. 12.

وانشغال خليفته بيبرس بتثبيت أقدامه فى حكم مصر فى أول الأمر هو الذى أدى إلى إهمال جانب الأمير جمال الدين، وهذا دليل دامغ على تورط البحريين مع التتار ضد المسلمين. والذى يتورط مع التتار -ألد أعداء المسلمين- لا يتورع أن يقيم علاقات مع الصليبيين أيضًا، ويؤيد ذلك ما ذكره ابن سباط "أن الملك الظاهر كان يحسب أن لهم [البحريين] اتفاقًا وعهودًا مع الإفرنج، فكان ينظر إلى الأمراء المذكورين بالعين الرفيعة ويخاف منهم"[٧٧]. وظل الأمراء الثلاثة فى سجن بيبرس حتى وفاته ١٢٧٧م/ ٦٧٦هـ حيث أطلق ابنه السعيد بركة سراحهم فى نفس العام[٧٨]. ورغم المعاناة التى كابدها الأمراء البحريون خلال فترة الحبس من جراء اتصالهم بالفرنج؛ إلا أنهم عاودهم الحنين مرة أخرى إلى اتباع سياستهم المعهودة فاتصلوا بالفرنج وتوطدت العلاقات بينهم من جديد، وخير دليل على ذلك الاتفاق الذى تم بين همفرى أرف مونت فورت Humphrey of

---

[٧٧] ابن سباط: المصدر السابق، ص ٥٦٨.

[٧٨] صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٩٨. انظر أيضًا:

Clermont, Op. Cit., p. 21.

ولمزيد من التفاصيل عن موت بيبرس وتولية ابنه السعيد بركة الحكم راجع: ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور، حققه د. مراد كامل، راجعه محمد على النجار، الناشر الشركة العربية للطباعة والنشر، ط١، القاهرة ١٩٦١م، ص ٤٣، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض ١٩٧٦م، ص ٢٧٣-٢٧٤، ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، عنى بنشره أحمد حطيط، دار النشر: فرانز شتاير، برفيادن، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص ٢٢٣-٢٢٤، ابن حبيب: تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه، جـ١، حوادث وتراجم ٦٧٨-٧٠٨هـ/١٢٧٩-١٣٠٨م، نشره وحققه ووضع حواشيه محمد محمد أمين، راجعه وقدم له سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦م، جـ١، ص ٤٨، بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية فى الدولة التركية، نشره وقدم له ووضع فهارسه د. عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص ٩١، زبدة الفكرة فى تاريخ أهل الهجرة، جـ٩، تحقيق زبيدة محمد عطا، القاهرة بدون تاريخ، جـ٩، ص ١٤١-١٤٢.

Monttort سيد بيروت[٧٩] والأمير زين الدين بن على سنة ١٢٨٠م/ ٦٧٩هـ، فذكر صالح بن يحيى أن سيد بيروت قام بمنح الأمير زين الدين بن على ضيعة فى بلاد بيروت بشرط ألا يبيعها أو يهبها، وإذا ما فعل ذلك رجع عن هبته، وفى مقابل ذلك تعهد الأمير زين الدين بن على بعدم إيواء المجرمين اللاجئين إليه من بيروت وألا يمكنهم من البقاء فى إقطاعه أكثر من ثمانية أيام ويردهم صلحًا أو قصرًا، كما تعهد بمنع المتسللين إلى بلاد بيروت للوصول إليها والإفساد فيها[٨٠].

وذكر صالح بن يحيى أن كاتب هذه الوثيقة هو "جورج بن يعقوب" كاتب القلعة "والكتاب فى رق وفى أدناه ختم فى شمع أحمر خيال بفرسه ورمحه وترسه وهو رنك صاحب بيروت ودائر الختم كتابة بالإفرنجية فى أصل الختم"[٨١]. ولعل المقصود بالقلعة هنا قلعة بيروت التى يدير منها سيد بيروت شئون إقطاعه. ويستشف من اسم كاتب الوثيقة أنه مسيحى من أصل عربى، ولعله كان يعمل فى خدمة الأمراء الصليبيين ببيروت الذين استعانوا به وبأمثاله فيما يختص بالتعاملات العربية.

وهناك تساؤل يطرح نفسه ألا وهو: هل البنود التى أوردها صالح بن يحيى تمثل ترجمة عربية لتلك الوثيقة أم هى نسخة طبق الأصل من الوثيقة اللاتينية كتبت باللغة العربية فى نفس الوقت؟ الواقع أن هذين الاحتمالين واردين لكننا نميل إلى الاحتمال الأخير على اعتبار أن كاتب هذه الوثيقة

---

[٧٩] هنرى أوف مونت فورت هو الابن الثانى لفيليب أوف مونفورت سيد صور الذى تزوج من الأميرة إشيف Eschive سيدة بيروت والتى ورثت الحكم بعد موت أختها الكبرى إيزابيل، وقد مات عام ١٢٨٤م/٦٨٣هـ. لمزيد من التفاصيل عن شخصيته انظر:

Du Cange, op. Cit., p. 236.

[٨٠] Clermont,Op.Cit.,p.5,11-12; cf. also. Jean Richard, Op. Cit., pp. 396-97; Prawer, Crusader Institutions, Oxford, 1980, p. 206.

ولمزيد من التفاصيل عن بنود هذه المعاهدة، راجع: صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ١١١.

[٨١] صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ١١٢.

مسيحى من اصل عربى، وبما انه كتب نص الوثيقة باللاتينية فمن اليسير عليه أن يكتب نسخة أخرى لنفس الوثيقة باللغة العربية، ومهما يكن من أمر فإن صالح بن يحيى أورد لنا كل هذه التفاصيل الهامة دون تعليق منه ودون أن يدرى أنه بذلك يثبت تورط البحريين فى علاقاتهم مع الصليبيين وبذلك يضيف لنا دليلاً آخر على صدق ما ذهب إليه الباحث فيما يتعلق بهذا الصدد.

يبدو أن العلاقات الصليبية البحرية قد توطدت أكثر فأكثر، إذ ذكر صالح بن يحيى أن ملك قبرص أهدى الأمير سعد الدين خضر هدية عبارة عن مجموعة من الطيور الجوارح نظرًا لشغف الأمير بتربية هذه الطيور واللعب بها. والعجيب أن المؤرخ نفسه يشير إلى أنه يرجح أن يكون سيد بيروت هو الذى أهدى هذه الطيور وليس ملك قبرص[٨٢]، والباحث يتفق مع رأى صالح بن يحيى فى ذلك؛ نظرًا لمتاخمة أملاك البحريين لبيروت من جهة، والعلاقات الودية التى ارتبطت بينهما من جهة أخرى. وهذا دليل آخر يضاف إلى غيره من الأدلة السابقة على طبيعة العلاقات الصليبية البحرية فى ذلك الوقت.

وفى أغسطس ١٢٨٣م/ جماد أول ٦٨٢هـ انتهز البحريون فرصة مرور القوات البرية لهيو الثالث ملك قبرص[٨٣] -بالقرب من ممتلكاتهم-

---

[٨٢] صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٨٨، انظر أيضًا:

Clermont, op. Cit., p. 23.

[٨٣] من المعروف أن الملك هيو الثالث ملك قبرص توج ملكًا على مملكة بيت المقدس الاسمية ١٢٦٩م/ ٦٦٨هـ، وبعد فشله فى التوفيق بين نبلاء المملكة وعدم قدرته على القبض على زمام الأمور، ترك للمملكة دون أن يعين نائبًا عنه وعاد إلى قبرص ١٢٧٦م/٦٧٥هـ واكتفى بإرسال خطاب إلى البابا جريجورى العاشر شرح فيه أوضاع المنطقة الحرجة، مما أتاح لشارل الأنجوى أن يطالب بتاج المملكة بوصفه وريث الإمبراطور فريدريك الثانى فى صقلية.. وفى ١٢٨٣م حاول الملك هيو الثالث استعادة نفوذه السابق فى مملكة بيت المقدس من الملك شارل الأنجوى فغادر قبرص على رأس حملة عسكرية متوجهًا إلى عكا، إلا أن الرياح ساقته إلى بيروت فنزل بها فى أول أغسطس-

متوجهة إلى بيروت صوب صور وقاموا بالإغارة عليها وقتلوا منهم أعدادًا كبيرة وأسروا ثمانين رجلاً، فضلاً عن غنائم كثيرة أخرى[٨٤]. وما قام به البحريون من هجوم على القوات القبرصية لم يكن له أثر سلبى على صليبيى صيدا وبيروت؛ نظرًا لأن هذا الهجوم لم يكن موجهًا ضدهم وإنما كان موجهًا ضد القبارصة؛ لذا فقد استمرت العلاقات بينهما على صفائها السابق.

لم تقتصر علاقة البحريين على فرنج صيدا وبيروت المجاورين لهم فحسب، بل تخطت ذلك إلى فرنج عكا أيضًا. فيذكر ابن سباط أن الرسائل تبودلت بين البحريين من جهة، وفرنج صيدا وعكا من جهة أخرى فى نفس هذا العام ١٢٨٣م/ ٦٨٢هـ[٨٥]. وعلى الرغم من أن صالح بن يحيى يذكر أن هذه الخطابات قد زورها أيضًا تقى الدين نجا بن أبى الجيش نكاية فى البحريين لما حظوه من مكانة عالية[٨٦]، إلا أن الباحث يتشكك فى صدق تلك الرواية أيضًا، والدليل على ذلك أن العلاقات البحرية المملوكية فى عهد السلطان المنصور قلاوون ١٢٧٩-١٢٨٩م/ ٦٧٨-٦٨٨هـ قد شهدت توترًا كبيرًا وخطيرًا، فلم يكن موقف المنصور

=١٢٨٣م/ الرابع من جمادى الأولى ٦٨٢هـ، حيث استقبله سيدها همفرى دى مونفور بالحفاوة والتكريم، بيد أن الملك هيو لم يمكث طويلاً فى بيروت فأبحر إلى صور بينما زحف جيشه برًا للحاق به فتعرض للهزيمة على أيدى البحريين، بينما فشل الملك هيو نفسه فى الوصول إلى عكا بسبب معارضة أهلها، خاصة الداوية، فمات كمدًا فى نفس العام.

انظر: بيرس الدوادار: المصدر السابق، ص ٢١٨، ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص ٥٨، انظر أيضًا: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ٢ ج، القاهرة ١٩٣٦م، جـ٢، ص ١١٥٩-٦٠.

[٨٤] ابن الفرات: المصدر السابق، جـ٧، ص ٢٧٧، المقريزى: المصدر السابق، جـ١،ق٣، ص ٧١٦، بيرس الدوادار: المصدر السابق، جـ٩، ص ٢١٨، ابن عبد الظاهر: المصدر السابق، ص ٤٧-٤٨، انظر أيضًا:

Amadi, Op. Cit., pp. 214-15.

[٨٥] ابن سباط: المصدر السابق، ص ٥٦٩، الشجاعى: المرجع السابق، ص ٢٢٩. انظر أيضًا:

Clermont, op. Cit., p. 23.

[٨٦] صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ١٠٨.

قلاوون حيال البحريين كسلفه بيبرس، بل كان أشد منه وأعنف؛ إذ قام بتجريد هؤلاء الأمراء من ممتلكاتهم وجعلها للحلقة الطرابلسية[٨٧] ١٢٨٩م/ ٦٨٨هـ[٨٨]، ولا نستبعد قيامه بإلقاء القبض عليهم وسجنهم، وإن كان صالح بن يحيى ينفى سجن الأمراء البحريين مرة أخرى على عهد المنصور قلاوون.

أخذت النكبات تترى على البحريين، فاستغل فرنج بيروت ما لحق بأمراء البحريين من ضرر على يدى المنصور قلاوون وقاموا عام ١٢٩١م/ ٦٩٠هـ بالإغارة على بلادهم. وقد تمكن جى Guy سيد بيروت[٨٩] من الإيقاع بهم وقتل عددًا كبيرًا منهم غدرًا[٩٠]، ولعله قد قام بفعلته تلك كعمل وقائى حتى لا يقدم البحريون على مد يد العون للأشرف خليل ١٢٨٩-١٢٩٣م/ ٦٨٨-٦٩٢هـ إذا ما أراد استعادة بيروت، لمعرفتهم التامة بخبايا المنطقة ودروبها واطلاعهم على عورات البلاد. وهكذا جنى البحريون عاقبة سياستهم المزدوجة تجاه الصليبيين والمسلمين على حد سواء.

---

[٨٧] عدد الحلقة كان عدتهم أربعة وعشرين ألف جنديًا، كل ألف منهم مضاف إلى أحد الأمراء مقدمى الألوف، وكل مائة من الألف لهم باش ونقيب، ومنهم من هو بحرى يركز بالقلعة، ومنهم من يركز فى غيبة السلطان بمراكز معينة بمصر والقاهرة، ومنهم من يتوجه فى المهمات التشريفية، انظر: ابن شاهين الظاهرى: المصدر السابق، ص ١١٦.

[٨٨] صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ١٠٨، انظر أيضًا:

Lammens, Op. Cit., p. 12.

ولمزيد من التفاصيل عن فتح قلاوون لطرابلس انظر: أبو الفداء: المصدر السابق، جـ٤، ص ٢٣، شافع بن على: المصدر السابق، ص ١٣٤-١٣٥، المقريزى: المصدر السابق، جـ١، ق٣، ص ٧٤٦، الحنبلى: شفاء القلوب، ص ٤٥٦.

[٨٩] جى هو ابن الملك هيو الثالث، وقد تزوج من إشيف بعد موت زوجها الأول همفرى أوف مونت فورت، انظر:

Du Cange, Op. Cit., p. 236.

[٩٠] الحريرى: الإعلام والتبيين فى خروج الفرنج للملاعين على بلاد المسلمين، دار الدعوة، الإسكندرية ١٩٨٤م، ص ٧٢.

جدول نسب بني بحتر

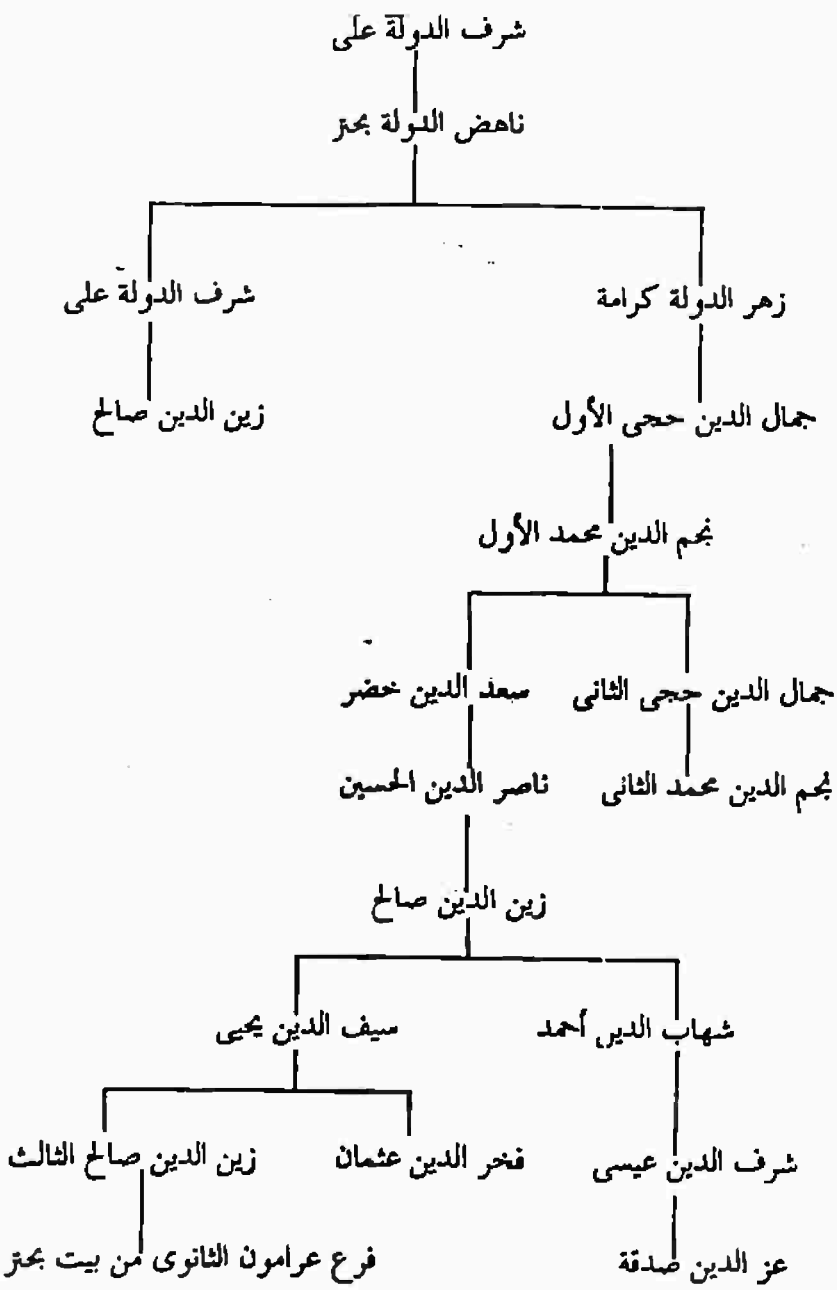

نقلاً عن:

صالح بن يحيى: المصدر السابق، ص ٦٤.

المختصرات الواردة بالبحث

- A.O.L.	Les Arhives de l'Orient Latin.
- J.A.	Journal Asiatique.
- R.A.O.	Recuiel d'Archéologie Orientale.
-R.H.C.,Doc. Arm.	Recuiel des Historiens des Croisades, Document Armeniens
- R.H.C., H.Occ.	Recuiel des Historiens des Croisades, Historiens Occidentaux
- R.H.G.F.	Recuiel des Historiens de Gaule et de France.

أولاً : المصادر الأجنبية

-Albert d'Aix:

Historia Hierosolymitana, Ed. R.H.C., H.Occ, T. IV, Paris 1879. pp. 265-713.

- Amadi, F., Diomedes, S.:

Chroniques d'Amadi et de Strambaldi, Ed. Mas Latrie R., Histoire Politique, Paris, 1891-1893.

- Annales de Terre Sainte, (1095-1291)

Publiées par R. Rohericht et G. Raynaud, im (A.O.L.), T. II.

- Clermont Ganneau:

Deux chartes des croisées dans des archives arabes, in R.A.O.,1905, Vol VI, pp. 1-30.

- Du Cange:

Les Familles d'outre-mer, Publiées par M.E.G. Rey, Paris, 1869.

- Eracles:

L'Histoire d'Eracles Empereur et de conquête de la terre d'outre-mer, Ed. R.H.C.,H.Occ, T. II, Paris, 1839.

- Fulcher of Charters:

A History of the expedition to Jerusalem, Trans. by Frances Ryan, Sisters of St. Joseph, edited with an

introduction by Harold's Fink, Konuville, U S A., 1969.

- Les Gestes des chiprois, cf. R.H.C. Doc. Arm., T II, Paris 1869.

-Makhairas:

Recital concerning the sweet land of Cyprus entitled "Chronicle", edited with a translation and notes by R.M. Dawkins, Vol. I, Oxford, 1932.

-Mattieu d'Eddesse:

Extraits de la chronique de Mattieu d'Edesse, Ed. R.H.C. Doc. Arm., Paris 1969.

- Philip of Novare:

The wars of Frederick II against the Ibelins in Syria and Cyprus, trans. by J. L. La Monte and M.J. Hubert, New York, 1936.

-Richard of Cornuall:

Letter to Baldwin of Rierers and Robert Clerk Rome, 1, July 1241 in Matthew, Paris, Vol I.

-William of Nangi:

Gesta Sanctae Memoriae Ludovici Regis, in R.H.G.F., Vol XX.

- William of Tyre:

A History of Deeds done beyond the sea, Trans. by Babcock and Krey, 2 vols, New York, 1943.

ثانيًا : المصادر العربية

١- ابن الأثير، (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) أبو الحسن بن أبي الكرم الملقب عز الدين:

الكامل في التاريخ، ٩ ج، دار الفكر، بيروت ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

٢- ابن حبيب، (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب:

تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، ج١، حوادث وتراجم (٦٧٨-٧٠٨هـ / ١٢٧٩-١٣٠٨م)، نشره وحققه ووضع حواشيه محمد محمد أمين، راجعه وقدم له سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦م.

٣- ابن حزم، (ت ٤٥٦هـ) أبو محمد بن علي بن سعيد بن حزم الأندلسي:

جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون، ط٤، دار المعارف، بدون تاريخ.

٤- ابن خلدون، (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦م) عبد الرحمن محمد المغربي:

العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، م٥، بيروت ١٩٦٨م.

٥- ابن سباط، (غير معروف له تاريخ وفاة):

صدق الأخبار في نسبة آل تنوخ، نشر ضمن كتاب حيدر أحمد الشهابي (ص ٥٦٤-٦٠٥)

٦- ابن شاهين الظاهرى، (ت ٨٧٢هـ / ١٤٦٧م) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى:

زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى بنشره وتصحيحه بولس راويس، مطبعة الجمهورية بباريس، ١٨٩٤م.

٧- ابن شداد، (ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٩م) بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تيم:

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، ط١، القاهرة ١٩٦٤م.

٨- ابن شداد، (ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م) عز الدين بن عبد الله محمد بن على بن إبراهيم:

تاريخ الملك الظاهر، عنى بنشره أحمد حطيط، دار النشر فرانز شتاير، برفسبادن، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

٩- ابن عبد الظاهر، (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م) محيى الدين:

تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور، حققه د. مراد كامل، راجعه محمد على النجار، الناشر الشركة العربية للطباعة والنشر، ط١، القاهرة ١٩٦١م.

١٠- ابن الفرات، (ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن على:

تاريخ الدول والملوك، م٤ جـ١-٢، م٥ جـ١ ، نشر حسن محمد الشماع، البصرة ١٩٦٧-١٩٧٠م.

١١- ابن القلانسى، (ت٥٥٥هـ / ١١٦٠م) أبو يعلى حمزة بن غلى بن محمد:

تاريخ أبى يعلى حمزة القلانسى المعروف بذيل تاريخ دمشق، بيروت ١٩٠٨م.

١٢- ابن واصل:

مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، جـ١، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٠م.

١٣- أبو شامة، (ت ٦٥٥هـ / ١٢٦٧م) شهاب الدين أبو محمد بن عبد الرحمن:

الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ٢ ج فى مجلد واحد، نشره محمد حلمى محمد أحمد، القاهرة ١٩٥٦-١٩٦٢م.

١٤- أبو الفداء، (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) إسماعيل بن على محمود الملك المؤيد عماد الدين صاحب حماة:

المختصر فى أخبار البشر، ٤ ج فى مجلدين، بيروت، بدون تاريخ.

١٥- البغدادى، (ت ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م) صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادى:

مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق وتعليق على محمد البجاوى، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م.

١٦- البندارى، (ت ٦٢١هـ / ١٢٢٥م) الفتح بن على:

سنا البرق الشامى، اختصار كتاب البرق الشامى للعماد الكاتب الأصفهانى، تحقيق د. فتحية البجاوى، القاهرة ١٩٧٩م.

١٧- بيبرس الدوادار، (ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م) الأمير ركن الدين بيبرس المنصورى:

١- التحفة الملوكية فى الدولة التركية، نشره وقدم له ووضع فهارسه د. عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

٢- زبدة الفكرة فى تاريخ أهل الهجرة، جـ٩، تحقيق زبيدة محمد عطا، القاهرة، بدون تاريخ.

١٨- الحريرى، (عاش فى القرن السابع الهجرى / القرن الثالث عشر الميلادى) أحمد بن على:

الإعلام والتبيين فى خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين، دار الدعوة، الإسكندرية، ١٩٨٤م.

١٩- الحنبلى، (عاش فى القرن السابع الهجرى / القرن الثالث عشر الميلادى) أحمد بن إبراهيم:

شفاء القلوب فى تاريخ بنى أيوب، تحقيق قاظم رشيد، بغداد ١٩٧٩م.

٢٠- السويدى:

سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.

٢١- شافع بن على، (ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م) شافع بن على بن عباس الكاتب:

حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق ونشر عبد العزيز عبد الله الخويطر، جامعة الملك عبد العزيز، المكتبة المركزية، جدة، بدون تاريخ.

٢٢- صالح بن يحيى، (عاش فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى) الأمير صالح بن يحيى بن الحسين أمير الغرب:

كتاب تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بنى الغرب، نشر وتعليق لويس شيخو، بيروت، فى المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، ١٨٩٨م.

٢٣- الطبرى:

تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤، دار المعارف، جـ١، ٢.

٢٤- القلقشندى، (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) أحمد بن على بن أحمد عبد الله:

صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ١٤ج، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٣م.

٢٥- المقريزى، (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) تقى الدين أبو العباس أحمد:

السلوك لمعرفة دول الملوك، نشر محمد مصطفى زيادة، الجزء الأول، القسم الثالث، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٩م.

٢٦- مؤلف مجهول:

تتمة كتاب وليم الصورى المنسوب خطأ لروتلان، ترجمة وتعليق أسامة زكى، مركز الدلتا للطباعة ١٩٨٩م.

٢٧- ياقوت الحموى، (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) شهاب الدين بن أبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى البغدادى:

معجم البلدان، ٥ج، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

ثالثًا : المراجع العربية

١- أسامة زكى زيد (دكتور):

صيدا ودورها فى الصراع الصليبى الإسلامى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية ١٩٨١م.

٢- سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور):

الحركة الصليبية، ٢ج، القاهرة ١٩٣٦م.

٣- الشدياق، طنوس بن يوسف:

أخبار الأعيان فى جبل لبنان، بيروت ١٨٥٩م.

٤- عمر رضا كحالة:

معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ٢ج، مؤسسة الرسالة، ط٥، بيروت ١٩٨٠م.

٥- فيليب حتى:

تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ٢ج، دار الثقافة، بيروت ١٩٥٨م.

٦- لويس شيخو:

بيروت تاريخها وآثارها، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٢٥م.

٧- محمد كرد على:

خطط الشام، ج١، ط٣، دمشق ١٩٨٣م.

٨- محمد محمد فرحات:

معاقل أعالى الفرات بين المسلمين والصليبيين، رسالة ماجستير لم تنشر بعد، الإسكندرية ١٩٨٨م.

رابعًا : المراجع الأجنبية

- **Ammoun Blanche:**

  Le Liban, Beirouth, Librairie du Liban 1968.

- **Cahen, C. :**

  1- La Chronique de Kirtay et les Francs de Syrie, in J.A., Paris 1931.

  2- La Syrie du Nord à l'époque des Croisades et la Principauté
  Franque d'Antioche, Paris 1940.

- **Churchill:**

  Mount Lebanon, 2 vols., London 1853.

- **Grousset, René:**

  Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, 3 vols., Paris 1948.

- **Lammens, H.:**

  La Syrie, précis historique, 2 vols, Beyrouth 1921.

- **Nickerson, M.E.:**

  The Seigneury of Beirut in the twelfth century and the Brisebbarre Family of Beirut-Blanche Garde, in Byzantion, 1949, pp. 141-185.

- **Prawer:**

  Crusader Institutions, Oxford 1980

- **Rey, E.:**

  Les Colonies franques de Syrie aux XI^e^ et XIII^e^ siècles, Paris 1883.

- **Richard, J. :**

  The Latin Kingdom of Jerusalem, Trans. from French by Janet Shirley, 2 vols., Amsterdam 1919.

- **Smail, R.C.:**

  Crusading warfare 1091-1193, London 1956.